الكشف النحوي لحجب المعاني

قراءة في قصيدة

(حلفت برب الراقصات إلى منى) لحميد بن ثور الهلالي

الدكتور: تامر عبد الحميد محيي الدين أنيس

كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة ـ جمهورية مصر العربية

الملخص: ثمة طبقات للمعنى بعضها ظاهر نباشر، وبعضها مستتر خلف أنواع من الحجب، والنحو بوصفه علمًا تفسيريًّا يقدم لنا طاقات وإجراءات لكشف تلك الحجب، تبدأ من تحديد الوظيفة النحوية ودلالتها، وتنتهي بإعادة بناء النص دلاليا بعد تفكيكه تركيبيا، مرورًا بإدراك آثار تفاعل الوظائف النحوية بدلالاتها التركيبية مع الدلالات المعجمية والصرفية لبنى الشواغل، وهذا ما يحاول البحث الاستضاءة به في قراءة قصيدة قديمة للشاعر حميد بن ثور الهلالي.

الكلمات المفتاحية: تحليل النصوص؛ المعنى النحوي الدلالي؛ حجب المعاني؛ النحو.

Grammar Detection to Block Meanings ; Reading in a Poem (I swear to the Lord of the Dancers to Mina) Hamed Ibn Thor Al Hilali

Abstract:

There are layers of meaning, some of which are direct phenomena, some of which are hidden behind types of blocking. Grammar as an explanatory science provides us with the energies and procedures for uncovering these blocks, starting with identifying the grammatical function and its significance, ending with reconstructing the text after dismantling it synthetically. Tthis is what the theses is trying to lightening of in reading an old poem by the poet HOMID IBN THAUR AL HILALI.

Key words: Textanalysis - Semantic grammatical meaning

مدخل

ينصب هذا البحث على مساحة الالتقاء بين النحو بوصفه طاقةً تحليلية للغة والنص بوصفه مستودعًا للمعاني، وهو ينشغل – في هذا الإطار – بتحليل مقولة تراثية مفادها أنَّ

تاريخ إيداع البحث: 08 ماي 2019.

تاريخ قبول البحث: 20 ماي 2019.

النحو يعين على كشف حجب المعاني، محاولا تحديد المقصود بتلك الحُجُبِ ورصد أنماطها من جهة علة الحَجْب، وصولًا إلى الوقوف على أبرز إجراءات كشفها ذات التعلق بالنحو بمفهومه الواسع الذي يتناول أحكام الكلم العربية إفرادًا وتركيبًا، وذلك في إطار دراسة تطبيقية لنصٍّ كامل لشاعر مخضرم هو حميد بن ثور الهلالي.

وبهذا جاء البحث في مدخل وثلاثة مباحث، تناول أولها حُجُبَ المعاني مفهومًا وأنماطًا، وتوجه ثانيها إلى عملية الكشف النحوي ومقتضياتها وإجراءاتها، وفرغ ثالثها لتحليل قصيدة (حلفت بربِّ الراقصات إلى منى) ورصد العلاقات النحوية الدلالية فيها محاولا توظيفها في كشف مستور المعاني استثمارًا وتفصيلًا لما تقدم من مهاد نظري.

وقد آثر البحث في بعض مراحله الاستئناس بأمثلة من غير الشعر قاصدًا الإشارة إلى أنَّ فكرته المحورية وهي دور النحو في كشف حجب المعاني لا تختص بالشعر وحده بل تشمل جميع أجناس الكلام وإن كان قد اتخذ نصًّا شعريًّا مجالا للتطبيق التحليلي.

المبحث الأول - في حُجُب المعاني

يقول ابن مالك في الكافية الشافية مشيرًا إلى ثمرة النحو وفائدته:[1]

وبعدُ فالنَّحوُ صلاحُ الألسِنَهْ والنَّفْسُ إنْ تعدَمْ سناهُ في سِنَهْ
به انكشافُ حُجُبِ المعاني وجلوةُ المفهومِ ذا إذْعانِ

ومما يستوقف النظر[2] عبارة (انكشاف حجب المعاني وجلوة المفهوم)، كيف تتسع لفكرة غموض الدلالة، واحتجاب المعاني وراء الألفاظ أو داخل الألفاظ؟ وكيف تفتح الباب للتفكر في آليات ذلك الكشف وتلك الجلوة، ولتلمس مناهج واضحة في هذا المجال فيما قدمه العلماء من تحليلات وما تناولوه من ظواهر؟

وثمة تساؤلات أولية حول معنى حُجُب المعاني؛ وما الأشياء التي يمكن أن تكون حجابا للمعنى؟ أو ما أنواع تلك الحجب؟

لقد تكلم البلاغيون عن التعقيد اللفظي والتعقيد المعنوي، وتكلم الأصوليون عن درجات الوضوح والخفاء في الدلالة، كما تناول المحدثون قضية الغموض في اللغة وعلاقة النحو بالمعنى بدراسات مستفيضة، وكل هذه الجهود تعد منابع ثرة تنطق بالكثير حول تلك الحجب التي تكتنف المعاني، واستثمار النحو في التعامل معها وكشفها.

أنماط الحُجُب

ثمة ثلاثة أنواع رئيسة للمعنى هي:

- المعنى الوظيفي المرتبط بالأنظمة القاعدية للغة، من أصوات وصرف ونحو.

- والمعنى المعجمي وهو دلالات الكلمات من جهة مادتها وتتنوع بين معانٍ وضعية، ومعانٍ عرفية، يرصدها المعجم، مع إيراد بعض السياقات الدالة عليها أحيانا.

- والمعنى المقامي، وهو معنًى سياقي يتعلق بالكلام لا اللغة، لكنَّ تشكيله وفهمه يتوقف على المعنيين الوظيفي والمعجمي، بالإضافة إلى عناصر المقام من متكلم ومتلق وغير ذلك(3).

وكل نوع من هذه الثلاثة تعرض له أنماط من الاحتجاب، غير أنَّ البحث - انطلاقا من انصبابه على الكشف النحوي - يتناول بصورة أساسية ما يعرض للمعاني الوظيفية؛ وهي المعاني المباشرة للأبواب النحوية والمعاني العامة التي تؤديها الحروف وأشباهها، ومعاني الصيغ الصرفية، وما يتصل بالمعاني الوضعية والاستعمالية للتراكيب.

ولعبد القاهر الجرجاني عبارة دالة على فكرة احتجاب المعاني داخل الألفاظ، يقول: «إذْ قد عُلِمَ أنَّ الألفاظ مغلقةٌ على معانيها حتى يكون الإعرابُ هو الذي يفتحها، وأنَّ الأغراض كامنةٌ فيها حتى يكون هو المستخرجَ لها، وأنَّه المعيارُ الذي لا يتبيَّنُ نُقصانُ كلام ورجحانُه حتى يُعرَضَ عليه، والمقياسُ الذي لا يُعرَفُ صحيحٌ من سقيمٍ حتى يُرْجَعَ إليه»(4).

فإذا تأملنا قوله: «الألفاظ مغلقة على معانيها» و«الأغراض كامنة فيها» وقسناه بكلمة الحُجُب التي استعملها ابن مالك، وجدنا الرجلين – على ما بينهما من تباعد في الزمن- يصدران عن تصور واحد، وأنَّ أحدهما يجمل ما فصَّله الآخر بعض التفصيل، ويلمح إلى ما صرح به، وأنَّهما معًا يريان اللفظ حجابًا للمعنى وبابًا مغلقًا عليه يحتاج إلى مفتاح. وليس المراد من ذلك – بطبيعة الحال - معنى حسيًّا للاحتواء والانغلاق، بل المراد أنَّ المعاني لا يوصل إليها إلا عن طريق الألفاظ، فما وجه احتجاب المعاني خلف الألفاظ؟

ترجع الحجب اللفظية إلى كون العلاقات بين أجزاء الكلام بعيدة المُدْرَك، وهذا البُعْدُ له اعتباران؛ أحدهما ذاتي نسبي يختلف من متلقٍّ إلى آخر، فما يدركه هذا بأدنى نظر قد يحتاج من ذاك إلى طول تأمل وسؤال، واعتبارٌ آخر موضوعي يتعلق بتركيب الكلام في نفسه، كأنْ تُشَتَّتَ فيه الرتبة، أو يباعد بين الضمير ومرجعه، أو يطول الفصل بين المتلازمين، أو يحتمل أكثر من وجه، ومن ثم يمكن القول بأنَّ الحجب اللفظية تتنوع إلى نمطين رئيسين:

1- ما يرجع إلى المتلقي، وهو صعوبة إدراك العلاقات بين الألفاظ بسبب قصور معرفي أو إدراكي، وهذا يتوقف على معرفة الأوضاع والاستعمالات، وسلامة الحواس، وتهيؤ العقل بخلوه عن المشتتات.

2- وما يرجع إلى التركيب نفسِه، وهذا النمط ينشعب إلى شعبتين:

أ- ما ينشأ عن تهويش[5] تلك العلاقات بين الألفاظ بما يؤدي إلى ضعف التأليف أو التعقيد اللفظيّ كما سماه البلاغيون.

ب- ما ينشأ عن احتمال اللفظ لأكثر من وجه وما يترتب عليه من تعدد المعنى والاحتياج إلى الترجيح.

وعلينا أن نلقي الضوء على هذه الأنماط من الحجب قبل البحث عن آليات كشفها.

أولا- ما يرجع إلى المتلقي:

دلالة اللفظ على المعنى إما دلالة وضعية، وإما دلالة استعمالية، والدلالة الاستعمالية إما أن ترجع إلى الاستعمال العام أو إلى الاستعمال الخاص بالمتكلم (دلالات سمات الأسلوب).

وفهم هذه الدلالات من اللفظ يحتاج بداهة إلى معرفة المتلقي بالوضع والاستعمال، فمن لم يعرف أنَّ الرفع يدل على كون الكلمة عمدة في التركيب – وهو معنى وضعي – لا يدرك الفرق بين رفع (سلام) ونصبها في قوله تعالى: ﴿قالوا سلامًا قال سلامٌ﴾[هود: 69]، وأنَّ (سلامًا) مفعول مطلق لفعل محذوف، والتقدير: نسلِّم سلامًا، و(سلامٌ) مبتدأ لخبر محذوف والتقدير: سلامٌ عليكم، وأنَّ جملة الجواب – من ثَمَّ – جملة اسمية، وهي تدل على الثبوت بخلاف جملة التسليم الفعلية الدالة على التجدد.

ومَنْ لم يعلمْ أنَّ الحال كالظَّرف لعاملها إذا سمع قول الشاعر: (فعاشت معنَّاةً بأترح عيشة) لم يفهم أنَّ التعنية قد استغرقت العيش.

وإذا مرَّ سامعٌ بنحو قول الشاعر: (فوجدي بجملٍ وجدُ تيك) احتاج أن يعرف أنَّ (تيك) اسم إشارة للمفرد المؤنث، وهذا من الدلالات الوضعية، وأنَّ التركيب بعلاقاته النحوية الدلالية يقتضي التشبيه، لأنَّ الخبر هو نفس المبتدأ في المعنى، وإضافة الوجد في كل طرف إلى شخص مغاير للطرف الآخر يقتضي تباين الوجدين، فلا يبقى مسوغ للإخبار إلا التشبيه، وهي من الدلالات الاستعمالية المشهورة لتركيب الجملة الاسمية.

وإذا قرأ قول الشاعر:

وكنت أُرَى زيدًا كما قيل سيدًا إذا إنه عبد القفا واللهازمِ

وعرف أنَّه يُرْوَى بكسر الهمزة من (إنَّه) وبفتحها، فإنه يحتاج إلى معرفة أنَّ (إنَّ) المكسورة الهمزة لا تؤَوَّل مع ما بعدها بمصدر، و(أنَّ) المفتوحة الهمزة تُؤَوَّل مع معمولها بمصدر، ليعرف أنَّ الكسر لا يُقَدَّرُ معه شيء محذوف، والفتح يقدر معه خبر محذوف، لأنه في تأويل فإذا العبوديةُ، أي: حاصلة[6]، ثُمَّ يبني على ذلك الفرق بينهما في المعنى.

وتقول العرب: (قلَّ رجل يفعل كذا) في معنى: لا رجل، و(أقلي اللومَ) في معنى لا تلومي، لا أنَّ المراد لومي لومًا قليلًا، فيحتاج المرء إلى معرفة أن ذلك من أساليب النفي والنهي عند العرب. ويقولون: (غيري يفعل كذا) في معنى: أنا لا أفعل كذا، وتلك دلالة استعمالية عامة للتركيب.

إنَّ جهلَ المتلقي بتلك الأوضاع والاستعمالات لألفاظ اللغة وتراكيبها يعد الحجاب الأول دون المعنى الذي يحمله اللفظ.

ومن ثم كانت دراسة النحو المعرِّفة لدلالات التراكيب الوضعية والفاتحة لباب معرفة الدلالات الاستعمالية وسيلةً لكشف هذا الحجاب عن المعنى، وهو حجاب شفيف يزال بمجرد المعرفة أحيانًا، وبالتمرس على تنزيل القواعد الكلية على جزئياتها أحيانًا أخرى.

ثانيًا - ما يرجع إلى التركيب:

أ-حُجُب التهويش

1- ضعف التأليف:

المراد بضعف التأليف «أن يكون تأليف أجزاء الكلام على خلاف القانون النحوي المشتهر فيما بين معظم أصحابه، حتى يمتنع عند الجمهور»(7).

وقد تداول متأخرو البلاغيين التمثيل لهذا الضعف بصورة الإضمار قبل الذكر لفظًا ومعنًى، كقول النابغة الذبياني:

جزى ربُّه عنّي عديَّ بنَ حاتمٍ ... جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

وقول الآخر:

لمَّا عصى أصحابُه مصعبًا ... أدَّى إليه الكيلَ صاعًا بصاع

وقوله:

جزى بنوه أبا غيلانَ عن كِبَرٍ ... وحسنِ فعلٍ كما يجزى سنمَّارُ

وقوله:

ألا ليت شعري هل يلومنَّ قومُه ... زهيرًا على ما جرَّ من كلِّ جانبِ

«فإنَّه غير فصيح، وإن كان مثل هذه الصورة؛ أعني ما اتصل بالفاعل ضمير المفعول به، مما أجازه الأخفش وتبعه ابن جني(8)؛ لشدة اقتضاء الفعل المفعول به»(9).

ومن صور ضعف التأليف أيضًا(10):

- استعمال الضمير المنفصل مع إمكان استعمال المتصل، مثل قول زياد بن حمل التميمي:

وما أصاحبُ من قومٍ فأذكرهم إلا يزيدهمُ حبًّا إليَّ همُ

وقول الفرزدق:

بالباعث الوارث الأموات قد ضمنت إياهم الأرض في دهر الدهاريرِ

والوجه أن يقال: إلا يزيدونهم، وقد ضمنتهم.

- استعمال الضمير المتصل في حال وجوب استعمال المنفصل، مثل قول المتنبي:

خلت البلادُ من الغزالة ليلَها فأعاضهاكَ الله كي لا تحزنا

والوجه: فأعاضها إياك، إذ لا يجوز أن يتقدم غيرُ الأعرف مع اتصال الضميرين عند الجمهور. وكذلك قول القائل: ما جاءني أحدٌ إلاكَ، حيث يجب – في غير الضرورة – انفصال الضمير بعد إيَّا.

- العطف على محل اسم إنَّ بالرفع قبل استكمال الخبر مع عدم صلاحية الخبر لأحدهما مثل: إنَّ زيدًا وعمرٌو قائمان.

- حذف أحد مفعولي باب ظنَّ لغير دليل مثل: طننت زيدًا، لا على معنى اتهمته، بل بمعنى اعتقدته على حال ما.

ويمكن أن نستمر في تعداد هذه الصور إذا تتبعنا ما ورد في كتب النحو من تراكيب اتُفِقَ على منعها أو منعها جمهور النحاة، كإضافة (حيث) إلى المفرد، والفصل بين المتضايفين بأجنبي، ونصب الفعل المضارع بأن مضمرة في غير المواضع المقيسة، وتقديم المعمول على عامله حيث لا يجوز التقديم.

وليس المقصود هنا أنَّ المعنى يغمض على الفهم في هذه الصور كلِّها؛ لأنَّ المعنى مع بعضها ظاهر، وإنْ كان التركيب غيرَ فصيح، أو غير صحيح، ولذا قال الطاهر ابن عاشور: «فضعف التأليف عيب لا يوجب انهام المعنى بخلاف التعقيد»[11]، لكنَّ المراد أنَّ ضعف التأليف من شأنه - في بعض الحالات - أن يعرقل المتلقي عن الوصول لمعنى التركيب، ولو بإقلاق حسه اللغوي وجهازه الاستقبالي الذي اعتاد أعرافًا لغوية معيَّنة.

2- التعقيد اللفظي:

المراد بالتعقيد «ألا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المراد به»[12]، ووصفه بأنَّه لفظي يعني أنَّ سببه «أنْ يختلَّ نظم الكلام ولا يدري السامع كيف يتوصل إلى معناه»[13]. والمراد بالنظم هنا «تركيب الألفاظ على وفق ترتيبٍ تقتضيه أجزاءُ أصل المعنى»[14].

والتعقيد اللفظي يتعلق بالمعنى المطابقي؛ «لأنَّ فهم المعنى المطابقي بعد العلم بوضع المفردات وهيئاتها التركيبية يكون ظاهرًا، فإذا جاء الخلل فلا يكون إلا من حيث التركيب»[15].

ويرجع التعقيد اللفظي إلى أحد أمرين:

1- مخالفة القوانين النحوية المشهورة، وهو بهذا يشمل صور ضعف التأليف السابقة.

2- أن يكون تركيب الألفاظ على خلاف طبيعة المعنى بحيث تكثر مخالفة الأصل بالتقديم والتأخير، والفصل، والاعتراض، والحذف، والإضمار، فيكون اجتماع هذه الأمور - وإن كان كل منها شائع الاستعمال في كلام العرب غير مخالف لقوانين النحو المشهورة - موجبًا لتحير السامع وصعوبة فهمه للمراد(16).

والمثال المشهور الذي يتداوله البلاغيون على التعقيد اللفظي هو قول الفرزدق مادحًا خال هشام بن عبد الملك:

وما مثلُه في الناسِ إلا مملكًا أبو أمِّه حيٌّ أبوه يقاربُه

فطبيعة المعنى تقتضي بأن يكون ترتيب الألفاظ على هذا النحو: وما مثله في الناس حيٌّ يقاربُه إلا مملكًا أبو أُمِّه أبوه. لكنه قدم وأخر وفصل أكثر من مرة، فصار انتقال الذهن من هذا اللفظ إلى المعنى المراد عسرًا معرقلًا.

وما من شكٍّ في أنَّ هذه المظاهر المخالفة للأصل يمكن أن ترد في التركيب من غير أن تكون سببًا في تعقيده، وذلك إذا كان ورودها مصحوبًا بقرينة ظاهرة لفظًا أو معنًى مع نكتة(17)؛ أيْ غرضٍ يقصده المتكلم من اهتمام أو تنبيه أو نحو ذلك، مما يذكره البلاغيون في أحوال المسند إليه وأحوال المسند وأحوال متعلقات الفعل، لكنَّ تكاثرها في موضع واحد وغياب القرينة والقصدية من شأنه أن يصد الذهن عن المراد ويعيقه عن فهم المعنى.

ب- حجاب التعدد والاحتمال:

عني الأصوليون بالنظر إلى دلالة الألفاظ من حيث الوضوح والخفاء، فقسمته مدرسة المتكلمين إلى نصٍّ وظاهر ومجمل ومتشابه، وجعلته المدرسة الحنفية ثماني أقسام؛ المتضح الدلالة أربع مراتب هي من الواضح إلى الأوضح: الظاهر، والنص، والمفسَّر، والمحكم، والخفيّ الدلالة أربع مراتب هي من الخفي إلى الأخفى: الخفيّ، والمشكل، والمجمل، والمتشابه(18). وهذه الأقسام ترد على الكلمة من جهة مادتها ومن جهة بنيتها، وترد على التركيب من جهة علاقاته النحوية ومن جهة دلالته الاستعمالية، وتعتمد في الأساس على فكرة الاحتمال والتعدد في المعنى.

ومن التعدد ما يحتاج الترجيح فيه إلى معرفة بالدلالات الوضعية والاستعمالية التي سبقت الإشارة إليها، كقوله:

قضى ربُّها بعلا لها فتزوجت حليلا وما كانت تؤمِّل من بعلِ

فالمتلقي لا يستطيع أن يتبيَّن الفروق الدقيقة بين حمل الواو على الحالية وحملها على العطف أو الاستئناف، إلا إنْ كان عارفًا بالدلالات الوضعية والاستعمالية لكلِّ نوعٍ، وسيبقى غيرَ قادرٍ على الترجيح بينها حتى تتحقق له تلك المعرفة.

وكثير من الكلام البليغ يدق معناه بسببٍ من التعدد والاحتمال، وهذا واقع حتى في كتاب الله عز وجلَّ.

ويرجع التعدد والاحتمال في الكلام إلى عدة أسباب أبرزها ما يأتي:

1- توارد شروط أكثر من وظيفة نحوية على كلمة واحدة:

كما في قول الله عز وجل: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾[البقرة: 2]، فإنَّ (الكتاب) اسم مرفوع يحتمل أن يكون خبرا عن (ذلك)، وأن يكون عطفَ بيانٍ، فشروط الوظيفتين متحققة في هذه الكلمة، وهذا الاحتمال يؤثر بالتبع على أجزاء التركيب الأخرى وعلى دلالته، فإذا جعل (الكتاب) خبرًا، كانت أل للاستغراق المجازي، و(لا ريبَ) حال لتأكيد المعنى وتقريره في نفس السامع، و(فيه هدى للمتقين) جملة مستأنفة، وإذا جعل (الكتاب) عطف بيان كانت جملة (لا ريب فيه) خبرًا، وجملة (هدى للمتقين) خبرًا ثانيًا[19].

2- تخلف بعض الشروط في الظاهر من جميع الوظائف النحوية في كلمة واحدة:

ونعني بذلك الشروط الظاهرة المحدِّدَة لأصل الشاغل والرتبة والعامل وغيرها مما يحدد الموقع تحديدًا أوَّليًّا، وتخلف شيء من هذه الشروط يحوج إلى وجه من وجوه التأويل، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا﴾[النساء: 10]، إذ نجد (ظلمًا) مصدرًا منصوبًا، فإذا ذهبنا نعربه مفعولا مطلقا لم نجد قبله عاملا من لفظه أو مرادفه، وإذا ذهبنا نعربه مفعولا لأجله اعترضنا أمران تخلف كونه علة لأكل أموال اليتامى لأنَّ هذا الأكل نفسه ظلم، والشيء لا يكون علة لنفسه، وتخلف كونه قلبيًّا[20]، لأنَّ في الظلم تأثيرًا وعلاجًا، إذ الظلم وضع الشيء في غير موضعه[21]، وإذا لمحنا فيه معنى بيان الهيئة عند الفعل ورحنا نعربه حالا اعترضنا أنه مصدر والأصل في الحال أن تكون وصفًا.

فلما تخلف من كل موقع بعض شروطه فتح هذا بابا لاحتمالها جميعًا مع وجه من وجوه التأويل، فيجوز أن تعرب مفعولا مطلقًا لفعل محذوف أي يظلمون ظلمًا، وتكون الجملة حالا، أو للفعل المذكور (تأكلون) على تضمينه معنى (يظلمون)، وأن تعرب حالا على تأويل المصدر بالمشتق أي ظالمين[22]، ووُضِعَ المصدرُ موضع اسم الفاعل مبالغةً، وأن تعرب مفعولا لأجله على تقدير مضاف محذوف[23]؛ أي إرادةَ ظُلمٍ، لأنَّ إرادة الظلم غير الظلم، والإرادة عمل قلبي.

ولا شكَّ أنَّ تخلف الشروط وما يحوج إليه من وجوه التأويل يحتاج إلى عمل ذهني زائد، ومراعاةٍ لضوابط التأويل، وهو أمر يحتاج إلى معرفة نحوية تهدي صاحبها للكشف عن تلك الوجوه من التأويل.

وقد يتعانق هذا السبب والسبب الذي قبله، فيتوافر في الموضع الواحد بعض شروطٍ لأكثر من باب نحوي ويتخلف بعضٌ أخر، كما في قوله تعالى: ﴿فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان﴾[المائدة: 107]، حيث جاءت (آخران) مرفوعة، وتحتمل أن تكون خبرًا لمبتدأ محذوف، والتقدير: فالشاهدان آخران، أو خبرًا مقدَّمًا والمبتدأ (الأوليان)، أو أن تكون مبتدأ وخبرها (من الذين استحق عليهم) أو (يقومان)، وإذا جعلت أحدهما خبرًا فالآخر نعت يسوغ الابتداء بالنكرة، إلى أوجه أخرى لا تعرى عن ضعف[24]. فالوجه الأوَّل يترتب عليه القول بحذف المبتدأ، والثاني فيه تقديم وتأخير، والثالث فيه ابتداء بالنكرة، وكلها خلاف الأصل.

وكذلك كلمة (الأوليان) تحتمل أنْ تكون مبتدأ مؤخرًا خبره (آخران)، وأنْ تكون خبرًا لمبتدأ محذوف والتقدير: هما الأوليان، على الاستئناف البياني، وأن تكون بدلا من (آخران) أو من فاعل (يقومان)؛ لأنه يجوز إبدال المعرفة من النكرة، وإن ضُعِّفَ بكون الإبدال بالمشتق قليل[25].

3- الاشتراك اللفظي في الحروف والأدوات:

ومن ذلك قول الله عز وجل: ﴿ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم﴾[يس: 35]، فإنَّ (ما) تحتمل أن تكون اسمًا موصولًا؛ أي ليأكلوا مما عملته أيديهم «من الغرس والسقي والآبار، وغير ذلك من الأعمال إلى أن بلغ الثمر منتهاه وإبانَ أكلِه، يعني أنَّ الثمر في نفسه فعل الله وخلقُه، وفيه آثار من كدِّ بني آدم»[26]، كما تحتمل أنْ تكونَ حرفَ نفي للدلالة «على أنَّ الثمر خلق الله، ولم تعملْه أيدي الناس ولا يقدرون عليه»[27].

4- احتمال الكلمة الواحدة لأكثر من بنية صرفية وأثره على علاقاتها التركيبية:

أحيانًا ترد في التركيب كلمة تحتمل أكثر من بنية صرفية، ويختلف التوجيه النحوي لأجزاء ذلك التركيب باختلاف الأوجه الصرفية التي تحمل عليها الكلمة، ومن أبرز الأمثلة على هذا السبب قوله تعالى: ﴿لا يضار كاتب ولا شهيد﴾[البقرة: 282]؛ فإنَّ (يضارَّ) فعلٌ مضارع يحتمل أن يكون مبنيًّا للفاعل وأصله (يُضارِر)، وأن يكون مبنيًّا للمفعول وأصله (يضارَر).

وعلى الوجه الأوَّل فـ (كاتب) فاعل، والنهي متوجه إليه هو والشهيد بعدم الإضرار بالمدين أو الدائن، من حيث إنَّهما يمكن أن يزورا الكتابة والقول فيكتب الكاتب أكثر من الدين أو أقل

منه، ويشهد الشهيد بذلك، فيضران أحد المتداينين لجهله بالقراءة، أو من حيث إنهما يمكن أن يمتنعا عن الكتابة والشهادة.

وعلى الوجه الثاني فـ (كاتب) نائب فاعل، والنهي متوجه للمتداينين ألا يصيب أحدهما الكاتب أو الشهيد بأي أذى كأن يشغلهما عن حوائجهما بالكتابة أو الشهادة[28].

فاحتمال الكلمة لأكثر من بنية صرفية هنا قد أدى إلى تعدد الأوجه الإعرابية لما بعدها، ومن ثم تعدد المعنى الذي تدل عليه الآية الكريمة، واختلاف الحكم المأخوذ منها.

5- مخالفة الأصل بالحذف، أو بالتقديم والتأخير، أو نحو ذلك:

فمن مخالفة الأصل بالحذف قوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾[لقمان: 25، الزمر: 38]، فجملة مقول القول جاءت بطرف واحد هو الاسم الجليل (الله)، وأما الطرف الآخر فغير مذكور، وهذا يسوّغ حملها على أنَّها فعلية بتقدير المسند فعلا متقدمًا والاسم الجليل فاعلا، أي: خلقهنَّ الله، وحملَها على أنها اسمية بتقدير الاسم الجليل مبتدأ حذف خبره، أي: الله خالقهنَّ، أو خلقهنَّ، أو تقديره خبرًا لمبتدأ محذوف أي: خالقهنَّ الله، فهذه أربع صور محتملة للجملة نشأت عن حذف أحد طرفي الجملة[29].

6- وجود أكثر من عامل يصلح أن تتعلق به شبه الجملة معنى وتركيبا:

ومن الأمثلة على ذلك قول الله تعالى: ﴿وتركنا يوسف عند متاعنا﴾[يوسف:]، فإنَّ الظرف (عند) يمكن – من الوجهة التركيبية المحضة - أن يتعلق بالفعل (ترك)، ويمكن أن يتعلق بمحذوف يقع حالا من يوسف، والتقدير: وتركنا يوسف كائنًا عند متاعنا، والفرق بين الوجهين من الناحية الدلالية أنَّ الوجه الأول يعني أنَّ الترك حدث عند المتاع، وهذا لا يستلزم بقاء يوسف عليه السلام عند المتاع، إلا لو فُسِّرَ الترك على معنى الإبقاء، ولكنَّ أصله المفارقة والانفصال، أما الوجه الثاني فيعني أنَّ يوسف كان عند المتاع وقت الترك، وهذا يعني توقع استمرار بقائه لأن الأصل بقاء ما كان على ما كان، وفي هذا الوجه مزيد عناية به، لأنَّ فيه إشارة إلى تعيين مكانه وجعله بجوار ما يقصد حفظه، ولهذا فهو أنسب للمقام الذي يحاول فيه إخوة يوسف الاعتذار لأبيهم وبيان عدم تقصيرهم في حفظ أخيهم.

7- خفاء قرينة الإحالة:

مما يؤدي إلى احتمال التركيب لأكثر من وجه ومن ثَمَّ تعدد معناه خفاء القرينة المعيّنة للمحال إليه مع الألفاظ المحيلة كالضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة والمعرفة بأل التي لا يظهر فيها قصد الجنس، ومثال ذلك مع الضمير قوله تعالى: ﴿وقيله يا رب إنَّ هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾[الزخرف: 88]، فإنَّ الهاء في (قيله) ليس لها مرجع قريب واضح، مما يحوج إلى البحث

والتفكر في سياق الآيات، وقد ذهب بعض العلماء إلى أنَّ الضمير يعود إلى النبي محمد ﷺ وذهب بعضهم إلى عوده إلى النبي عيسى عليه السلام المذكور في قول الله عز وجل: ﴿ولما ضُرِبَ ابنُ مريمَ مثلًا﴾[الزخرف: 57]، وقد رجح أبو جعفر النحاس الوجه الأول لجهتين «إحداهما أنَّ ذكره أقرب إلى المضمر، لأنَّ المعنى: قل يا محمد إن كان للرحمن ولدٌ فأنا أوَّل العابدين، والجهة الأخرى أنَّ الذي بعده مخاطبة للنبي ﷺ بإجماع وهو ﴿فاصفح عنهم﴾[الزخرف: 89]»(30).

ومن هذا الخفاء مع اسم الإشارة قوله تعالى: ﴿كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم﴾[الشورى: 3]، فإنَّ اسم الإشارة (ذلك) ليس قبله إلا الحروف المقطعة، ولا يصلح أن يكون المشار إليه هو الإيحاء المفهوم من (يوحي) لأنه مشبه واسم الإشارة مشبه به والشيء لا يشبه بنفسه، صحيح أنَّ (يوحي) يمكن أن تعدَّ قرينة على جنس المشار إليه وهو الإيحاء، لكن يبقى اسم الإشارة بحاجة إلى قرينة مُعَيِّنَة لنوعه أو فرده، وقد حمله الزمخشري على ما في سورة الشورى من معان حيث قال: «أي مثل ذلك الوحي أو مثل ذلك الكتاب يوحي إليك وإلى الرسل من قبلك اللهُ، يعني أنَّ ما تضمنته هذه السورة من المعاني قد أوحى الله إليك مثله في غيرها من السور، وأوحاه من قبلك إلى رسله، على معنى أنَّ الله تعالى كرر هذه المعاني في القرآن وفي جميع الكتب السماوية؛ لما فيها من التنبيه البليغ واللطف العظيم لعباده من الأولين والآخرين»(31)، وليس هذا هو القول الوحيد إذ يحتمل أن يكون المشار إليه هو مدلول الحروف المقطعة كما ذهب ابن عطية(32)، وابن عجيبة(33)، سواء أكان إخبارا بالغيب أم خصائص للنبي ﷺ.

ومن خفاء قرينة الإحالة مع الاسم الموصول المراد به معيَّن قوله تعالى: ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب﴾[النمل: 40]، إذ لم يسبق له ذكر يُعَيِّنُه، ولذلك تعددت الأقوال في تعيينه دون قطع(34)، ويمكن أن تعدَّ هذه الحالة - التي يصل فيها خفاء القرينة إلى درجة الفقد - من قبيل العهد الجنسي في ضمن فرد مبهم مقصود بالحكم، إذ يتحوَّل الذهن من البحث عن شخص معيَّن إلى مفهوم (الذي عنده علم من الكتاب) مع الإقرار بأنَّه يصدق على شخص معيَّن في الخارج هو الذي قال هذا الكلام، غير أنه ليس المراد تعيين شخصه بل المراد تعيين صفته(35).

المبحث الثاني – في الكشف النحوي

أشار الدكتور محمد حماسة في تعليقه على بيتي ابن مالك السابقين إلى أنَّ المراد بـ (كشف حجب المعاني وجلوة المفهوم) أنَّ النحو يساعدنا على تفسير البناء اللغوي تفسيرًا يقوم على إيضاح العلاقات وكشف الترابط بين أجزاء الجملة(36).

وهي إشارة ذات دلالة على أنَّ أولى خطوات كشف حجب المعاني – بعد المعرفة بمعاني المفردات - أن توضح العلاقات النحوية بين الكلمات والجمل، حتى تُسْتَجْلَى أوجه الترابط بينها.

وتبرز في هذا السياق رؤية الإمام عبد القاهر الجرجاني التي يربط فيها بوضوح بين النمط النحوي للتركيب والأثر الدلالي الناشئ عنه، فيما يعرف بنظرية النظم، وله في ذلك نصوص مضيئة منها قوله: «اعلم أنْ ليس النظم إلا أنْ تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها»[37].

وقد قامت خطة الجرجاني في الكشف عن المعاني النحوية على خطوتين:

أ- رصد الوجوه

ب- تلمس الفروق بينها

وتعنى الخطوة الأولى بتحديد وجوه الأداء الممكنة في كل باب، ومن أبرز أمثلته على ذلك رصده لعدد من صور الإخبار بانطلاق زيد على النحو الآتي:

- زيد منطلق.
- زيد ينطلق.
- ينطلق زيد.
- منطلق زيد.
- زيد المنطلق.
- المنطلق زيد.
- زيد هو المنطلق.
- زيد هو منطلق.

ومثل ذلك النظر في أوجه الحروف المتقاربة المعاني، وأوجه الفصل والوصل بين الجمل، وأوجه الحال، وأوجه الشرط والجزاء، وأوجه التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، والحذف والإضمار...إلخ.

ثم تأتي الخطوة الثانية وهي تحليل البنية النحوية لكل وجه، للتوصل إلى الفروق الدلالية القائمة بينها من خلال تعيين المعاني الوضعية والاستعمالية المتعلقة بها.

ويهتم الجرجاني – في هذه الخطوة - بالعلاقات النحوية القائمة بين الكلمات، والجمل؛ كعلاقة الفعل بالفاعل وبالمفعول وعلاقة الخبر بالمبتدأ، وعلاقة الجواب بالشرط، وهو يعبر عن تلك العلاقات بالتعليق والبناء، ويتخذ منها منطلقًا للكشف عن دلالات التراكيب فـ«لا نظم في الكلام ولا ترتيب، حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك»[38].

وزبدة القول أنَّ كشف أسرار التراكيب وتعرف خصائصها في الدلالة ومزياتها في الاختيار لا بد أن ينطلق من معاني النحو، التي هي بحسب التصنيف الحديث معانٍ وظيفية، ينهض على ضبطها علم النحو، بشقيه الإفرادي والتركيبي.

والنحو إذ ينهض بهذه المهمة يتفاعل مع المعجم من جهة ومع علائم المقام وشاراته من جهة أخرى، وقد فصَّل الدكتور محمد حماسة هذه العلاقة، وحدد «محاور ترتكز عليها الجملة التي تعد صحيحة نحويًا ودلاليًا في اللغة، هي:

1- وظائف نحوية بينها علاقات أساسية تمد المنطوق بالمعنى الأساسي.

2- مفردات يتم الاختيار من بينها لشغل الوظائف النحوية السابقة.

3- علاقات دلالية متفاعلة بين الوظائف النحوية والمفردات المختارة.

4- السياق الخاص الذي ترد فيه الجملة، سواء أكان سياقا لغويا أم غير لغوي»[39].

والوظائف النحوية هي البوتقة التي تنصهر فيها الدوال المعجمية والصرفية، وكلُّ وظيفة منها تشتمل على مكوّن دلاليٍّ يسهم في تحديد الفرق بينها وبين غيرها من الوظائف، ولنأخذ مثالًا لذلك الحال والنعت فهما يشتركان معًا – على المستوى الدلالي - في:

- أنَّ كلًّا منهما خبر في المعنى أي أنه في البنية العميقة للتركيب حكم على صاحبه.

- أنَّ كلًّا منهما وصف في المعنى أي أنَّه يبين صفة في صاحبه.

ويفترقان في:

- أنَّ الحال يقصد بها بيان الهيئة، والنعت يقصد به الإيضاح أو التخصيص، ومن ثم فالنعت كالجزء من المنعوت يفرق بين اسمين مشتركين في اللفظ، والحال زيادة في الفائدة والخبر وإن لم يكن الاسم مشارَكًا في لفظه.

- أنَّ الحال قيد في عاملها تشبه المفعول فيه[40]، ولذلك يقولون الحال كالظرف لعاملها، أي أن العامل مؤقت بزمن الحال، ولا كذلك النعت.

ومثل ذلك الفرق بين الحال والتمييز من جهة الدلالة، إذ يتمثل في الفرق بين بيان الهيئة وإزالة الإبهام، ولذلك لا نرى سواءً إعرابَ (فارسًا) من قولهم: لله دره فارسًا، حالا وتمييزًا، لأن الحال تعني أن المتكلم أراد بيان الهيئة التي استثارت العجب ابتداءً، والتمييز يعني أنه بنى كلامه على إبهام العموم في سبب التعجب أوَّلًا ثم رفع الإبهام، وعلى الرغم من التقارب بين المسلكين في المعنى العام يبقى لكلٍّ منهما مسربٌ في النفس دقيقٌ.

وتتفاعل مع هذا المكون الدلالي في الوظيفة النحوية دلالة البنية الصرفية التي تشغلها، ومن أمثلة ذلك التفرقة بين الإخبار بالاسم والإخبار بالفعل، في نحو قول الشاعر:

لا يألف الدرهم المضروب خرقتنا لكن يمرُّ عليها وهو منطلق

يقول الجرجاني عن استعمال الوصف هنا: «هذاهو الحسن اللائق بالمعنى، ولو قلته بالفعل: لكن يمر عليه وهو ينطلق، لم يحسن»[41]، من حيث إنَّ الفعل فيه دلالة على التجدد والحدوث، والوصف في مقابلته دال على ثبوت الخبر للمخبر عنه، وإثبات الانطلاق للدرهم على جهة التجدد يستلزم عروه عنه ولو للحظة في مروره على الحرز، وهذا مشعر بشيء من البطء في إخراجه، بخلاف (وهو منطلق).

كما تتفاعل مع دلالة الوظيفة النحوية دلالة المادة المعجمية تفاعلا يؤثر على معنى الكلمة نفسها أحيانًا، وعلى تحديد الوظيفة النحوية أحيانًا أخرى، ونستطيع تلمس أثر الدلالة النحوية في معاني المفردات في قول أبي ذؤيب الهذلي:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

فالتركيب باشتماله على إضافة الأظفار إلى ضمير المنية يقول لنا إنَّ المنية لها أظفار، وبإسناد الفعل (أنشب) إلى ضمير المنية يقول: إنَّ المنية لها إرادة وحركة، وهو بهذا يكسر التوقع العرفي الكامن في وعي أبناء اللغة الذي يصنف المنية دلاليا على أنَّها أمر معنوي يحل في الكائن الحي يزيل عنه الحياة، ومن ثَمَّ فخصائصها تتعارض مع خصائص الأظفار التي أضيفت إليها والإنشاب الذي أسند إليها، مما يلجئ العقل كي يفهم هذا التركيب إلى أنْ يعطي للمنية معنى مجازيًا يقبل هذا الإسناد وتلك الإضافة، فيسبغ عليها معنى السبع[42].

وأمَّا التأثير المعاكس فقد نبه إليه ابن هشام في حديثه عن الجهات التي يدخل الاعتراض على المعرب من جهتها، فقال: «وأوَّل واجبٍ على المعرب أنْ يفهم معنى ما يعربه، مفردًا أو مركَّبًا، ولهذا لا يجوز إعراب فواتح السور على القول بأنَّها من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه،...، وسألني أبو حيانَ – وقد عرض اجتماعنا -: علامَ عُطِف (بحقَلَّد) من قول زهير:

تقيٌّ نَقيٌّ لم يُكَثِّرْ غنيمةً بنَهْكَةِ ذي قُرْبَى ولا بحقَلَّدِ

فقلتُ: حتى أعرف ما الحَقَلَّدُ، فنظرناه، فإذا هو السيّئُ الخلُقِ، فقلْتُ: هو معطوفٌ على شيءٍ متوهَّمٍ، إذ المعنى: ليس بمُكَثِّرٍ غنيمةً. فاستعظم ذلك»[43].

ولو كان معنى الحقلَّد شيئًا آخر يصلح أن يكون مما تكثر به الغنيمة لعطفه على (نهكة)، فمعنى الكلمة هنا أسهم في تحديد وظيفتها النحوية وعلاقتها التركيبية.

ويتضح مما سبق أنَّ عملية الكشف النحوي عن حجب المعاني لا تقتصر على تحديد الوظائف النحوية من فاعل ومفعول ومضاف إليه وغيرها وما يتعلق بذلك من إدراك العلاقات النحوية بين الكلمات، بل لا بدَّ من أن يصاحبه أعمال أخرى، كإدراك الدلالات اللغوية الوضعية والاستعمالية للكلمات، وإدراك الدلالات الوضعية لأبنية الكلمات، وتأمل العلاقات القائمة بين المستويات الثلاثة.

ويضاف إلى ذلك أنَّ هذا الكشف يحتاج إلى مجهود ذهني ينتقل من معلوم اللفظ إلى مجهول المعنى، ويعيد بناء الدلالة بعد تحليل التركيب، ويعين على ذلك - بعد الأعمال السابقة - الالتفات إلى سمات أسلوبية كالتكرار، والتأكيد، والتقابل، وجهة العلاقة (إيجاب / سلب)، وحركة الضمائر. وهذا ما يحاول البحث تحقيقه أو التحقق منه في المبحث التالي.

المبحث الثالث - القصيدة والكشف

سنعمد الآن إلى نص شعري قديم نحاول أنْ نحللَ بِنْيَتَه، ونعيدَ الربط بين العناصر النحوية والدلالية فيه، حتى نتمكن من الكشف عما يزخر به من معانٍ وما يستكِنُّ وراءها من عالم شعري شفيف.

والنص المختار هو قصيدة للشاعر حميد بن ثور الهلالي، « وهو شاعر مخضرم؛ عاش في الجاهلية وقضى الشطر الأكبر من حياته في الإسلام؛ ولذا عده ابن سلام وغيره من شعراء الطبقة الرابعة الإسلاميين»[44].

والقصيدة التي معنا لامية من بحر الطويل، رواها أبو بكر بن دريد عن عمه، كما ذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق[45]، يقول فيها:

1-حَلَفْتُ بِرَبِّ الرَّاقِصاتِ إلى مِنًى ... زَفِيْفًا وَرَبِّ الوَاقِفِينَ عَلَى الحَبْلِ
2-لَوَ انَّ لِيَ الدُّنيا وما عُدِلتْ به ... وجُمْلٌ لغَيْرِي ما أَرَدْتُ سِوَى جُمْلِ
3-أتهجر جُمْلا أم تُلِمُّ على جمل ... وجملٌ عَيوفُ الريق جاذبة الوصلِ
4-فوجدي بجمل وجد شمطاءَ عالجت ... من العيش أزمانا على مِرَرِ القُلّ
5-فعاشت معَنَّاةً بأتْرَح عِيشة ... ترى حسنًا أن لا تموت من الهُزْلِ
6-قضى ربُّها بعلا لها فتزوجت ... حليلا وما كانت تؤمِّل من بعلِ

7-وعدَّتْ شهورَ الحمل حتى إذا انقضت ... وجاءت بخِرقٍ لادنيء ولا وغْلِ
8-فهفَّ إليها الخيرُ واجتمعت لها ... عيونُ العُفاة الطامحين إلى الفضلِ
9-إذا راكبٌ تهوي به شمَّرِيَّةٌ ... غريبٌ سواهم مِنْ أناسٍ ومن شَكْلِ
10-فقال لهم كيدوا بألفي مقنَّع ... عظامٍ طوالٍ لا ضعافٍ ولا عُزْلِ
11-فشكُّوا طبيقًا أمرَهم ثم أسلموا ... بكفِّ ابنِها أمرَ الجماعة والفعلِ
12-وقال لهم حملتموني أمركم ... فلا تتركوني لاشتراكٍ ولا خَذْلِ
13-فلما اكتمَى في بِزَّةِ الحرب واستوى ... على ظهر شيحانِ القرا نبَل عبْلِ
14-وساروا فأعطوه اللواء وجربوا ... شمائلَ ميمونٍ نقيبتُه مُبْلِي
15-فسار بهم حتى لوى مُرْجَحِنَّةً ... تضيق بها الصحراء صادقةَ الفتل
16-فلما التقى الصفان كان تطاردٌ ... وطعنٌ به أفواه معطوفةٍ نُجْلِ
17-نهارًا طويلًا ثم دارت هزيمةٌ ... بأصحابه من غير ضعفٍ ولا خَذْل
18-فقال لهم والخيل مدبرةٌ بهم ... وأعيُنُهم مما يخافون كالقُبْلِ
19-على رسلكم ! إني سأحمي ذماركم ... وهل يمنع الأحسابَ إلا فتًى مِثْلي
20-فبيناه يحميهم ويعطف خلفهم ... بصيرٌ بعورات الفوارس والرَّجْل
21-هوى ثائرٌ حرَّانُ يعلم أنه ... إذا ما توارى القومُ منقطعُ النَّبْلِ
22-فلم يستطع من نفسه غيرَ طعنةٍ ... سُوًى في ضلوع الجوفِ نافذةِ الوغْلِ
23-فخر وكرت خيلُه يندبونه ... ويُثنون خيرا في الأباعد والأهلِ
24-فلما دنَوا للحي أسمع هاتفٌ ... على غفلة النسوان وهي على رحلِ
25-فقامت إلى موسى لتذبح نفسها ... وأعجلها وشْكُ الرزيئة والثُّكْلِ
26-فما برحت حتى أتاها كما بدا ... وراجعها تكليمَ ذي خُلُقٍ جزْلِ
27-فوجدي بجملٍ وجدُ تيكَ وفرحتي ... بجملٍ كما قد بابنها فرحت قبلي

يبدأ الشاعر قصيدته ببيتين يقرر فيهما شدة تعلقه بمحبوبته جُمْل:

1- حَلَفْتُ برَبّ الرَّاقِصاتِ إلى مِنًى ... زَفِيفًا وَرَبِّ الوَاقِفِينَ عَلَى الحَبْلِ
2- لَوَ انَّ لِيَ الدُّنيا وما عُدِلتْ به ... وجمْلٌ لغيري ما أردْتُ سوى جُملِ

والبيتان ينتظمهما بنية نحوية واحدة، هي بنية القسم وجوابه، وإنْ كان جواب القسم يكتنفه تركيب شرط امتناعي (لو انَّ لي الدنيا...)، وهذا النمط الذي اختاره الشاعر يرفع مستوى التأكيد إلى الدرجة الثالثة التي تساق للمنكر ومن يتنزل منزلته.

والبداية بالفعل الماضي تشي بمزيد من التحقق والتأكيد، وإنْ كان إنشاء القسم يَنْزعُ عن الفعل دلالته الزمنية، لكنَّ ظلال المعنى قد تبقى بعد زواله.

وإذا تأملنا اختياره للمقسم به نجد أنَّه ذكر كلمة (ربّ) مرتين متعاطفتين، وفي كل مرة أضافها إلى مضاف إليه مختلف، (الرَّاقصات إلى منى) مرة، و(الواقفين على الحَبْل) مرة أخرى، والربُّ واحد سبحانه لكنه كرر ما يدل عليه ليعطيَنا إيحاءً بالفصل بين الطرفين، فهو يريد أن يبثَّ في خاطر السامع صورتين من صور الرحلة المقدسة.. رحلة الحج، أولاهما صورة الإبل وهي تخبُّ في سيرها متجهةً إلى مِنًى، وثانيتهما صورة الحجيج يوم عرفة، وهم وقوف على جبل الرحمة يتضرعون إلى ربهم، وإذا حللنا تركيب الصورتين أدركنا أنَّه يريد أن يجعلهما متقابلتين.

فهو قد استعمل اسم الفاعل في الطرفين (الراقصات) و(الواقفين)، ولكنَّ هذه الصيغة الصرفية لم تعط الدلالة نفسها في الصورتين، بل جاءت الأولى دالة على الحركة، والثانية أقرب إلى السكون، والسبب في ذلك يرجع إلى المادة اللغوية التي صُبَّت في صيغة اسم الفاعل من جهة، وإلى حرف الجر الذي تعلق بالوصف من جهة أخرى، فالرقص . الذي يعني هنا الاهتزاز في السير. يدل على الحركة دلالة معجمية، ويعضد هذه الدلالة معنى انتهاء الغاية الذي أفاده الحرف (إلى) فإنَّه يشي بحركة بين نقطتين.

في حين أنَّ معنى الوقوف في أحد دلالتيه يعني السكون وعدم الحركة، فيقال: كان سائرًا فوقف، ومن ذلك الوقوف على الأطلال، ومتضمن للسكون في دلالته الأخرى وهي الوقوف من الجلوس، يقال: كان جالسا فوقف؛ لأنَّ الجالس إذا انتصب قائما صدق عليه وصف الوقوف ما كفَّ عن المشي والجلوس، فوصف الوقوف مقترن بحالة السكون، وقد قال ابن فارس: «الواو والقاف والفاء أصل واحد يدلُّ على تمكُّثٍ في شيء»[46].

فلدينا مقابلة في هاتين الصورتين بين الحركة والسكون، والجمع بين هاتين الحالتين المتقابلتين يشي باستغراق الأحوال كلها.

ونتوقع أنْ يسريَ معنى القداسة ومعنى الاستغراق من المقسم به إلى المقسم عليه، بناءً على فكرة المناسبة بين طرفي القسم، المأخوذة من قضية الترابط الكلي للنص.

فحبُّه لجُمْل ليس مبعثه اللذة الحسية المؤقتة، بل هو تعلقٌ روحاني مطهَّر، وارتباطٌ دائم في جميع حالاته، ومن هنا فهو في نفس الشاعر أكبر من الدنيا وما حوت وما عدلت به..

2- لَوَ انَّ لِيَ الدُّنيا وما عُدِلتْ به وجُمْلٌ لغَيْرِي ما أَرَدْتُ سِوَى جُمْلِ

وقد صاغ هذه الموازنة في جملة شرطٍ امتناعي، يقتضي تأكيد إثبات جوابه، وهو أنَّه لا يريد سوى جُمل، لكنَّ الجملة الحالية التي قيد بها جملة الشرط وهي قوله (وجمل لغيري)،

تُسْتَقَى منها دلالةٌ دقيقة في طبيعة الموازنة التي نصبها الشاعر، فهو – في حقيقة الأمر – لا يوازن بين قيمة جمل وقيمة الدنيا وما عدلت به بإطلاق، بل يوازن بين حيازته للدنيا ومثلها معها مع فقده لجمل أو قل مع حيازة غيره لها، وبين حيازته لجمل وحدها، والفرق بين الأمرين أنَّ الأول حديث عن القيمة المطلقة، والثاني حديث عن القيمة بالنسبة إلى ذات الشاعر، حديث عن التعلق والحيازة والانفراد، ولا شك أن التعلق بالقيمة المطلقة أمر مشترك بين الناس، أما التعلق النسبي فيكتسي بخصوصية طرفيه. وهكذا يعمل النحو في بناء الدلالة.

ثم يأتي الشاعر ببيت يتوسط بين هذه الافتتاحية والصورة الممتدة التي سيرسم فيها مدى تعلقه ووجده بجمل، إذ يقول:

3- أَتَهْجُرُ جُمْلًا أَمْ تُلِمُّ على جُمْلِ وجُمْلٌ عَيُوفُ الرَّيْقِ جاذِبَةُ الوَصْلِ

يخاطب الشاعر في هذا البيت نفسه بجملة استفهامية مصدرة بهمزة التعيين، لتعكس حيرته بين الهجر والوصال، وهي حيرة مفاجئة غير مبررة للوهلة الأولى بعد ما قطع به من تقديم جُمْل في نفسِه على الدنيا وما عدلت به، كان ينبغي أن تكون الإجابة محسومة لديه، أو قل: لم يكن لهذا السؤال محل في سياقه !!

وهنا تأتي جملة العجز الحالية (وجُمْلٌ عَيُوفُ الرَّيْقِ جاذِبَةُ الوَصْلِ) لتضيء لنا سبب هذه الحيرة، وتكشف لنا عن علة إيراد السؤال، فجمل امرأة عيوفُ الرَّيق؛ أي شديدة الكره للباطل، وهي أيضًا جاذبة الوصل، فلن تتمكن إن وصلتها إلا من الاستمساك بها وبمنهجها.

وهاتان الصفتان معًا اللتان صيغتا في جملة اسمية تدل على الثبوت، تقتضيان ترك الباطل، والعزم على البعد عنه، وهنا مكمن الصراع وسر السؤال، فإمَّا أنْ تبقى على عوائدك وتخلد إليها، وحينئذٍ فلن تصلح لوصل جمل فيلزمك هجرها، وإمَّا أنْ تنخلع من الباطل حتى تهيَّأ لوصلها، فتُلِمَّ بها وتنجذبَ إلى روحها النقية.

وهنا يبدأ الشاعر حركة التطهر النفسي بتجميل وصل محبوبته، وتفجير ينبوع الشوق في قلبه، حتى يتحمل تكاليف ترك الباطل من أجلها، فيصوغ لوحة كبيرة يرصد فيها لهفة الشوق وفرحة اللقاء بعد انعدام الأمل، وتستغرق هذه اللوحة بقية القصيدة إلا بيتا، من البيت الرابع إلى السادس والعشرين.

وتنقسم هذه الصورة الكبيرة إلى خمسة مشاهد، أولها يرصد حالة المرأة قبل زواجها إلى أنْ رُزِقَتْ بزوج، وثانيها يرصد وضعها مولودَها، وثالثها يصوِّرُه فارسًا مغوارًا حتى يصير قائدًا لقومه، ورابعها يرصد المعركة التي قاد فيها الفارس قومه حتى طعن، والأخيرمشهد عودته إلى أمه وقومه.

**4-فوجدي بجمل وجد شمطاءَ عالجت	من العيش أزمانا على مِرَرِ القُلّ**

**5-فعاشت مُعَنَّاةً بأَتْرَحِ عِيشةٍ	ترى حسنًا أن لا تموت من الهُزْلِ**

**6-قضى ربُّها بعلا لها فتزوجت	حليلا وما كانت تؤمِّل من بعلِ**

تسمى هذه الفاء التي افتتح بها قصته التمثيلية بالفاء الفصيحة، وهي تفصح عن محذوف قبلها يترتب عليه ما بعدها، فكأنَّه يقول لنفسه مجيبا عن تساؤله السابق: إنْ كنت متحيّرًا في أمرك فوجدي بجمل وجد عظيم، فاقطع حيرتك بوصلها.

أو كأنه يقول للسامع الذي يأخذه ذاك السؤال ويعجب لتحيُّره: إنْ كنت لا تعرف مقدار وجدي بجمل فوجدي بها مثل كذا وكذا.

وهذا الكلام المقدر يربط بين تساؤله في البيت السابق (أتهجر جملا...؟) والقصة الطويلة التي يسوقها للتشبيه بغرض بيان مقدار المشبه.

ونواة القصة جملة اسمية (وجدي بجمل وجد شمطاء)، وما يلي ذلك في حيز النعت لهذه الشمطاء، واستعمال الجملة الاسمية هنا يحقق غرضين؛ أحدهما الدلالة على الثبوت، في مقابل الحدوث، وكون طرفيها اسميين يجعل هذا الثبوت متعاليا على الزمن، فيكسوه ثوب الحقيقة المستمرة، وثانيهما أنّه – مع حذف أداة التشبيه – يزيد من التحام طرفيه؛ لأنَّ الخبر هو نفس المبتدأ في المعنى، ويعرف هذا النمط بالتشبيه البليغ، أي المبالِغ في ربط الطرفين.

والشمطاء هي المرأة التي خالط البياض شعر رأسها، وجمع الشاعر عليها من الصفات ما يزيدها ضعفا إلى ضعف؛ فهي أنثى وفي الأنوثة ضعف، وهي شمطاء كبيرة السن، وفي الكبر ضعف، وهي إلى هذا تعاني مرارة الفقر وقلة ذات اليد، ثم هي تكابد ألم الوحدة إذ لا زوج لها.

فهذه أربع وحدات دلالية ترسخ في ذهن السامع معنى الضعف، وسوف نرى أن هذا الترسيخ أمر مقصود جاء ليكون طرفا في مفارقة تكشف عن شدة الوجد.

وجاء التعبير عن الأنوثة وكبر السن بكلمة واحدة (شمطاء)، وذلك أنَّها نعت لمنعوت محذوف، أي امرأة شمطاء، وفي حذف الموصوف تنويه بالصفة من حيث رقيت لمباشرة العامل وأغنت غناء الاثنين، ومردود ذلك لدى المتلقي جعلها في بؤرة الشعور.

ثم يسوق الخصيصة الثالثة في قوله: (عالجت من العيش أزمانا على مرر القُلّ)، وتأتي كلمة (عالجت) بمادتها لتدل على بذل الجهد الذي يوحي بالمعاناة، وإيقاع الفعل على الزمن يزيد من حدة هذه المعاناة؛ لأن مجابهة الظرف أعظم من مواجهة المظروف، من جهة اتساع الظرف للمظروف وغيره، واستعمال صيغة الجمع تدل على امتداد المعاناة، ويعضدها في ذلك دلالة صيغة (فاعَلَ) في (عالجت) على الموالاة والتتابع، والجار والمجرور (من العيش) يتعلقان

بالفعل عالجت وفي (مِنْ) معنى السببية، فالعيش هو سبب المعاناة ومعالجة والجهد، وتأتي الحال (على مِرَرِ القُلِّ) لتكشف عن وجه المعاناة والألم، وهي حال من فاعل (عالجت)، فالمرأة متمكنة في باب الفقر، بحسب ما يفيده حرف الجر (على) من الاستعلاء والاستقرار، وصيغة الجمع (مِرَر) - جمع (مِرَّة) بمعنى شِّدة - ترصد مقدار المعاناة التي تجنيها من قلة المال.

ويمتد وصف حالة الفقر والعوز لتستغرق بيتا آخر:

5-فعاشت معَنَّاةً بأتْرَحِ عِيشة ترى حسنًا أن لا تموت من الهُزْلِ

و«أترَح من التَّرَح وهو الهم أو من التَّرْح وهو الفقر»، وفي بعض النسخ (بأبْرَحِ) أي أشد وأضيق، والمعنَّاة المجهدة، وكلها مفردات ترسم صورة الضعف والبؤس والاحتياج وترسخها حتى تنعكس في شدة تعلقها بمولودها القادم.

ويبلغ بها قمة الشعور بالأسى في قوله: (ترى حسنا ألا تموت من الهزل)، فترى فعل مضارع دال على التجدد والاستمرار، و(حسنا) مفعول ثان مقدم تركيزا على الحكم للإيحاء بالمفارقة، و(ألا تموت من الهزل) مصدر مؤول في محل نصب مفعول أول، وقد جاء بالمصدر المؤول لأنه يتيح له استعمال الفعل المضارع مرة أخرى، إنه يريد أن يوضح حالة متجددة تعيشها كل يوم.

ثم تأتي الخصيصة الرابعة في قوله:

قضى ربُّها بعلا لها فتزوجت...حليلا وما كانت تؤمِّل من بعلِ

ومرتكز الضعف هنا قوله: (وما كانت تؤمل من بعل)، وحمل الجملة هنا على الحالية يعطي المعنى شرفا وقوة لا يناله إذا حملت على العطف أو الاستئناف؛ لأنه يجعل يأسها من الزواج يخامر قلبها حتى في لحظات الزفاف، إنها امرأة عانت من الوحدة معاناة شديدة جعلتها تستبعد زوالها وإن كانت تعاينه.

يستمر الاتصال النحوي بين الأبيات حتى نهاية القصيدة، وإن كانت تنتقل دلاليا عبر أربعة مشاهد، أولها مشهد الحمل والولادة:

7-وعدَّتْ شهورَ الحمل حتى إذا انقضت وجاءت بخِرقٍ لادنيء ولا وغْلِ

8- فهفَّ إليها الخيرُ واجتمعت لها عيون العُفاة الطامحين إلى الفضل

وهذا مقطع قصير بالنسبة لما يليه؛ لأنَّ الشاعر أراده مدخلا للقضية الأهم، وهي وصف شجاعة ابنها وقيادته لقومه في حربهم ضد مناوئيهم، تمهيدا للمشهد قبل النهائي، مشهد انهزام أصحابه في المعركة وتسديد طعنة له، ونلاحظ أنَّ البنية النحوية هنا ترفد هذه السرعة في العرض، فمن طرفٍ افتتحت الجملة بواو العطف[47]، التي تعطفها على جملة قضى ربها بعلا

لها، التي تعد مفتاح الفرج، والمدخل إلى عالم القوة والأمل بعد الضعف واليأس، واستعمال الواو في العطف، يلغي تماما اعتبار البعد الزمني الذي يفرضه الواقع، ويتجاوز بذلك الدلالة على السرعة التي تفيدها الفاء لو قال: (فعدت)، وهذا التجاوز للزمن يقوى به سبك الصورة التمثيلية إذ ليس المقصود في النهاية السرد القصصي ولا ينبغي أن ينسى المتلقي أنّنا بصدد تمثيل لمدى علاقة الشاعر بمحبوبته جمل، ويعضد ذلك استعمال الفعل (عدَّ) الذي يشي بالاستعجال.

ومن طرف آخر عُقِّبَتْ هذه الجملة القصيرة (وعدَّتْ شهورَ الحمل) بجملة شرطية مسبوقة بـ (حتى) الابتدائية، لفصل مشهد قدوم البطل وتمييزه، ولذلك طال حيِّز الشرط ببيان صفاته، فهو (خِرْق) أي كريم ظريف في سماحة ونجدة، (لا دنيءٍ ولا وَغْلِ)، والوَغْل هو النذل الضعيف الساقط المقصر في الأشياء، ومن تمام صفته بيان فرحة الناس به واستقبالهم له:

8- فهفَّ إليها الخيرُ واجتمعت لها انقضت   عيونُ العُفاةِ الطامحين إلى الفَضْلِ

أسرع إليها الخير، وفي بعض النسخ الخيل، وملأت النعمة حياتها حتى فاضت وفضلت عن حاجتها وطمحت إليها عيون المحتاجين، وكثرةُ الطُّلَّاب المفهومةُ من الجمع (عيون العفاة) تدل على كثرة (الفضل)؛ أي القدر الزائد عن الحاجة، وإسناد الاجتماع إلى العيون يدل على بروز النعمة وظهورها حتى رآها كل أحد. وهذا كله يصب في حساب الضيف الجديد، حتى إذا ما استقر في النفس علو قيمته، جاء جواب الشرط:

9-إذا راكبٌ تهوي به شمَّرِيَّةٌ   غريبٌ سواهم مِنْ أناسٍ ومن شَكْلِ

وافتتاح الجواب بـ (إذا) الفجائية ليس الغرض منه مجرد الدلالة على مفاجأة قدوم العدو، بل الإشارة إلى مفاجأة القارئ بالانتقال إلى حدث جديد في زمن متراخٍ عن زمن الولادة، فالطفل الوليد صار شابًّا فتيًّا وفارسًا مغوارًا، وانتقل التصوير فجأة من مشهد ولادته إلى مشهد قيادته وبطولته، وطوى ما بينهما طيًّا؛ حتى لا يغيب خيط القصد من التمثيل عن ذهن السامع، ويبقى سبك النص محكمًا غيرَ مهلهل.

10- فقال لهم كيدوا بألفي مقنَّع   عظامٍ طوالٍ لا ضعافٍ ولا عُزْلِ

إنَّه التحدي السافر (كيدوا بألفي مقنع)، رجل واحد يتحدى ألفَي فارس، والنعوت المتلاحقة تزيد في سفور التحدي واستفزازه.

11- فشكُّوا طبيقًا أمرَهم ثم أسلموا   بكفِّ ابنِها أمرَ الجماعة والفعلِ

إنَّ هذا الهجوم المفاجيء والتحدي الكبير، جعلهم يترددون في اتخاذ القرار، ويفكرون في أمرهم مليًّا، (فشكوا طبيقا أمرهم)، أي شكوا مليًّا في أمرهم، وقد عبر عن هذا التفكير بالفعل

(شَكَّ)، الذي يصور حالة التردد والصراع الداخلي، وحين يقع على كلمة (أمر) يخصص دلالتها، بحيث يصير المعنى شكوا في قدرتهم على المواجهة والتصدي، ولو قال: فكروا، لاحتمل (الأمر) أشياء أخرى، ككيفية الاستعداد وخطة الحرب.

واستقر رأيهم على تقديم ذلك الفارس ابن صاحبة القصة ليكون قائدًا لهم، ونلاحظ أنَّه عبَّر عنه بلفظ (ابنها)، حتى يستصحب احتياجها له وتعلقها به، وعبر عن توليته بقوله: (أسلموا بكف ابنها أمر الجماعة والفعل)، فعطف الفعل على الجماعة، أي أمر الجماعة، وأمر الفعل، وهذا العطف يخصص دلالة المعطوف عليه بما يقابل الفعل من التخطيط والتنظيم والتوجيه الذي يسبق الفعل والتنفيذ.

12-وقال لهم حملتموني أمركم فلا تتركوني لاشتراكٍ ولا خَذْلِ

المراد بالاشتراك هنا الالتباس في الأمر والارتباك، فهو يأخذ عليهم عهدًا بالنصرة وعدم الخذلان عند اشتداد المعركة، وترتيب الطلب (لا تتركوني) على الخبر (حملتموني أمركم) الذي يتضمن إسناد التحميل إلى المخاطبين يبرز مسئوليتهم عن الالتزام بالعهد، من حيث يراد بالخبر هنا لازم الفائدة.

13-فلما اكتمَى في بِزَّةِ الحرب واستوى على ظهر شيحانِ القرا نبَل عبْلِ [48]

14-وساروا فأعطوه اللواء وجربوا شمائلَ ميمونٍ نقيبتُه مُبْلِي [49]

15-فسار بهم حتى لوى مرجحنة تضيق بها الصحراء صادقةَ الفتل

لم يصرح الشاعر بجواب لما الحينية (فلما اكتمى...) وكان المتوقع أن يكون قوله (ساروا فأعطوه...) هو الجواب، ولكن الواو العاطفة منعت ذلك، وجعلت الجواب مقدرًا، مما يجعل المعنى يتسع ويتمدد في ذهن المتلقي، ولذلك يقول الجرجاني في الحذف: «هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيهٌ بالسحر، فإنَّك ترى به تركَ الذِّكْرِ أفصحَ من الذِّكْر، والصَّمْتَ عنِ الإفادَةِ أزْيَدَ للإفادة، وتجدُكَ أنطقَ ما تكون إذا لم تنطق، وأتمَّ ما تكونُ بيانًا إذا لم تُبِنْ» [50].

وتتابع الأحداث هنا له دلالته: اكتمى، واستوى، وساروا، فأعطوه، وجربوا، فسار، حتى لوى.

هذا الحشد من الأحداث التي تصور حركة ما قبل المعركة، تعاطف معظمها بالواو الدالة على مطلق الجمع، بغرض غض الطرف عن التوالي الزمني، وكأنها أحداث متوازية لا متوالية، باستثناء (فأعطوه) المعطوف على ساروا بالفاء، و(فسار) المعطوف على (أعطوه)، والفاء في الموضع الثاني ظاهرة الدلالة على السببية، وهي من معاني الفاء العاطفة، وذلك أنَّ

سيره بهم مسبَّب عن حمله لواء القيادة، وأما الفاء الأولى فظني أنَّه لو وضع الواو موضعها لكان أولى.

وفي هذه الأبيات يكتمل مشهد بطولة الوليد الذي صار حياةَ أمِّه الجديدةَ.

16-فلما التقى الصفان كان تطاردٌ	وطعنٌ به أفواه معطوفةٍ نُجْلِ
17-نهارًا طويلًا ثم دارت هزيمةٌ	بأصحابه من غير ضعفٍ ولا خذْلِ
18-فقال لهم والخيل مدبرةٌ بهم	وأعيُنُهم مما يخافون كالقُبْلِ
19-على رسلكم ! إني سأحمي ذماركم	وهل يمنع الأحسابَ إلا فتًى مِثْلي
20-فبيناه يحميهم ويعطف خلفهم	بصيرٌ بعورات الفوارس والرَّجْلِ
21-هوى ثائرٌ حرَّانُ يعلم أنه	إذا ما توارى القومُ منقطعُ النَّبْلِ
22-فلم يستطع من نفسه غيرَ طعنةٍ	سُوًى في ضلوعِ الجوفِ نافذةِ الوغْلِ
23-فخر وكرت خيلُه يندبونه	ويُثنون خيرا في الأباعد والأهلِ
24- فلما دنَوا للحي أسمع هاتفٌ	على غفلة النسوان وهي على رحلِ

مرة أخرى تأتي لما الحينية ولكنَّ جوابها هذه المرة حاضر لاستحضار مشهد الحرب (فلما التقى الصفان كان تطارد)، وكان التامة هنا تدل على مجرد الحصول للتطارد والطعن، وكان يكفي في الدلالة على وقوعهما ما في الشرط (التقى الصفان)، وهذا دليل على أنَّ هناك نعتًا محذوفًا للتطارد، أي كان تطارد عظيم شديد، ويدل لذلك أيضًا وصف الطعن بقوله: (به أفواه معطوفة نُجْلِ)، و(معطوفة) نعت لمنعوت محذوف، والتقدير: أفواه طعنات معطوفة، والطعنة المعطوفة هي التي يعطف فيها الطاعن حديدته ويلويها ويذهب بها يمنة ويسرة، وتسمى المخلوجة، إنها طعنات واسعة مؤلمة، وهذا النعت هو الذي يسوغ مجيء المنعوت في جواب لما.

(نهارًا طويلا) ظرف زماني يكتمل بالنعت ليسرب معنى التعب والإنهاك الشديد، ويعقبه الحرف (ثم) الذي جاء متناسبا مع تراخي الزمن، وامتداد القتال حتى (دارت هزيمة بأصحابه)، واختيار الفعل دار هنا يشي بأنَّ القتال كان سجالا، وأنهم لم يهزموا بسهولة، وأكد هذا المعنى بالاحتراس اللطيف (من غير ضعف ولا خذل).

وهنا يظهر دور القائد الذي يصمد في ميدان المعركة حتى النهاية، (فقال لهم...) العطف بالفاء لترتيب القول على الانهزام، وتأتي جملة الحال (والخيل مدبرةٌ بهم وأعيُنُهم مما يخافون كالقُبْلِ) بين فعل القول ومقول القول لتحقق غرضين أحدهما تفسير القول الآتي، وثانيهما تصوير مدى فظاعة المشهد، وشدة الخوف، وإذا ثبت ذاك القائد حينئذ فهو بلا شك قمة في الشجاعة والقوة والإقدام.

يختار الشاعر في صدر مقول القول عبارة (على رسلكم) التي تشي بهدوء النفس ورباطة الجأش، ويعقبها بما يعضدها مما يبث الأمان في نفوس الفارّينَ (إنّي سأحمي ذماركم)، بتأكيد الجملة الاسمية بـ (إنَّ) رعاية لحال المخاطبين الخائفين، ويعقبها بجملة استفهام تقريري تزيد في حرارة الطمأنينة التي يريد أن يبثها في قلوبهم (وهل يمنع الأحسابَ إلا فتًى مِثْلي؟). إنَّه يريد أن يستبقيهم خلفه حتى إذا ما دارت الدائرة لهم كروا على عدوهم فهزموه.

فبيناه يحميهم ويعطف خلفهم بصيرٌ بعورات الفوارس والرَّجْل

هوى ثائرٌ حرَّانُ يعلـم أنه إذا ما توارى القومُ منقطعُ النَّبْلِ

الضمير في (بيناه) ضمير منفصل أصله (هو)؛ أي فبينا هو يحميهم، لكن حذفت الواو للضرورة؛ وذلك أنَّ (بينا) ظرف زمان يلزم إضافته إلى الجمل، وقد تضاف إلى مفرد لكن بشرط أن يكون مصدرًا، وعلى هذا فلدينا جملة اسمية خبرها جملة فعلية، بما تفيده من تأكيد، وفاعلا يحمي ويعطف ضميران يعودان على (ابنِها)، و(بصير) خبر ثان، وإنْ كان الغالب تقديم الخبر المفرد على الجملة، وقد كان الأقرب أن يأتي به منصوبا على الحالية من فاعل (يحمي) أو (يعطف)، لكن الرواية جاءت بالرفع، ولعله أراد أن يجعل هذه الصفة مستمرة له في ساعة القتال تلك، وفي غيرها، فيكون ذلك أدعى لبيان خبرته بالقتال واستحقاقه للقيادة، وقدرته على الحماية والدفاع.

ثم يأتي جواب (بينا) الذي يحمل معنى المفاجأة بحسب العرف الاستعمالي الذي يُكثِرُ من إيقاع (إذ) المفاجأةِ فيه، (هوى ثائر حران) وفي إسناد الفعل هوى إلى ثائر، ما يوحي بتشبيه الثائر الباحث عن ثأره بالنسر الذي يهوي على فريسته، وهذا الموتور حرَّان أي عطشان لدماء القائد، وقد حفزه على هذا الهجوم المفاجئ ما رأى من تراجع أصحابه وقرب تواريهم المفهوم من استعمال (إذا) لأنَّها تدل على التوقع، (إذا ما توارى القوم)، وأنَّه حينئذ لن يجد من يعينه وينصره فهو (منقطع النبل).

ومع هذا كله (لم يستطع من نفسه) أي لم يستطع الثائر من نفس القائد، (غيرَ طعنةٍ) واحدة، وفي استعمال اسم المرة إشعار بمنعته برغم انفراده، (سُوًى) أي مستوية، وهذا النعت يدل على عجلة الطاعن، خوفا من المطعون فلا وقت لديه للطعنة المخلوجة، لكنه ركز قوته كلها في إيغال الطعنة، (في ضلوعِ الجوفِ) فجاءت (نافذةَ الوغْلِ).

(فخَرَّ) بالفاء الدالة على الترتيب والتعقيب والتسبب، (وكرت خيلُه يندبونه ويُثنون خيرًا في الأباعد والأهلِ)، وهذا يدل على أنَّهم لمحوه من بُعْدٍ وهم يتراجعون، ونلاحظ أنَّه أسند الفعلين (يندبون) و(يثنون) إلى واو الجماعة وهي تعود على الفرسان المفهومين من (خيله)، ولكنَّها في الظاهر عائدة على (خيله) نفسها، وإنما يصح ذلك بتنزيلها منزلة العاقل، وفي هذا

الإسناد دلالة على أنَّ فضله وشجاعته قد ظهرت وثبتت للجميع حتى إنَّ العجماوات لتنطق بها، ومجيء الجملتين الحاليتين بالفعل المضارع بدلالته على التجدد والحدوث فيه تصوير حي للمشهد.

ويستمر الندب والثناء حتى دنوهم من الحي:

فَلَمَّا دَنَوا لِلْحَيِّ أَسْمَعَ هاتِفٌ على غَفْلَةِ النِّسْوانِ وَهْيَ عَلَى رَحْلِ

وجواب (لمَّا) هنا يشي بارتفاع أصوات القافلين من أصحابه، وهم يندبون قائدهم، وحاملَ لوائهم، فالهاتف مَنْ يُسْمَع صوتُه ولا يُرَى شخصُه، وقوله: (على غفلة النسوان) يدل على أنَّ الخبر كان مفاجئا للحي بمن فيه، ويزيدك في تصوير حالة أمه ساعة سمعت الخبر بقوله: (وهي على رحل)، إنها مستقرة في منزلها منشغلة بعمل يومها، مطمئنة إلى دنياها التي ابتسمت لها بعد طول عبوس، وإذا بالأصوات تتنادى بمقتله.

25- فقامت إلى موسى لتذبح نفسها وأعجلها وشْكُ الرزيئة والثُّكْلِ

26- فما برحت حتى أتاها كما بدا وراجعها تكليمَ ذي خُلُقٍ جزْلِ

27- فوجدي بجملٍ وجدُ تيكَ وفرحتي بجملٍ كما قد بابنها فرحت قبلي

تتسارع هنا الحركة الدرامية في القصة المتَمَثَّل بها، (فقامت إلى موسى لتذبح نفسها)، إنها لم تتثبت من الخبر، ولم تفكر فيه، أخذًا من دلالة الفاء على التعقيب، وتعليل القيام بذبح نفسها يختصر صدمتها النفسية اختصارًا موحيًا شفيفا، تستطيع أن ترى منه هول المفاجاة، وذهاب العقل، وألم الفراق، وضعف التحمل، وفقد السند، وشدة اليأس، إلى آخر هذه المعاني التي يمكن أنْ تحمل المرء على الانتحار لخبر فراق حبيب.

وبعد أنْ يبثَّ الشاعر في نفس المتلقي كل هذه المعاني دفعة واحدة، يعود فيؤكدها تصريحا بقوله: (وأعجلها وشْكُ الرزيئة والثُّكْلِ)، ووشك الرزيئة أي سرعة المصيبة، والثكل: فقدان المرأة لولدها، وكأنَّ حياتها التي سعدت فيها بزوجها وولدها طويت أمام عينيها فرأتها قصيرة جدًّا.

(فما برحت حتى أتاها) ازديادٌ في تسارع أحداث النهاية، يبرز في استعمال الفاء وما تحمله من تعقيب، وتركيب (ما برحت حتى) الذي يدل بظاهره على تحقق الغاية قبل الشروع في المغيَّا، وهذا أقصى درجة من درجات تخييل الحركة السريعة الموارة، وهو تخييل يُرِي في طيِّه الحركة النفسية للشاعر، ومدى فوارن مشاعره وتعاظم وجده بمحبوبته جُمْل، فها هو الفقيد يظهر فجأة بين يدي أمه ويكلمها بصوت ينم عن قوة وصحة تبعث الأمل من جديد، (راجعها

تكليمَ ذي حُلُقٍ جزْلِ)، وفي اختيار الفعل (راجعَ) إشارة إلى ردِّ الفعل المندفع (لتذبح نفسها) والصد عنه، والتوجيه لغيره مما يستبقي الحياة ويملؤها سعادة.

وتلك هي المعاني التي أراد الشاعر استفزازها في نفسه لكي يكون قراره بوصل جمل وقطع ما يضادُّها قرارًا حاسمًا، وهنا يأتي البيت الأخير الذي يصل به إلى حالة الاتزان النفسي:

فوجدي بجملٍ وجدُ تيكَ، وفرحتي بجملٍ كما قد بابنها فرحت قبلي

فنجده يستعمل جملتين اسميتين متعاطفتين محملتين بدلالة الثبوت، تُجمِل الأولى تصوير الوجد الذي فصله في الأبيات السابقة، بالغة قمة الإيجاز في استعمال اسم الإشارة (تيك) الذي يحيل إلى تلك المرأة العجوز محملةً بكل ما ذكره عنها من آلام وآمال، وتؤسس الثانيةُ لفرحته بوصل جمل التي غلبت قلقه من قطع عوائده التي تكرهها جمل، إنَّها فرحة اطمئنان النفس واستعادة الضائع، وزوال أسباب الحزن.

خاتمة

انتهى هذا البحث إلى ضبط حجب المعاني المتعلقة بالبعد النحوي في نمطين رئيسين:

الأول من جهة المتلقي، وهو صعوبة إدراك العلاقات بين الألفاظ بسبب قصور معرفي أو إدراكي.

والثاني من جهة التركيب نفسِه، ويرجع إلى سببين رئيسين:

أ- تهويش العلاقات النحوية بين الألفاظ.

ب- احتمال اللفظ لأكثر من وجه نحوي وما يترتب عليه من تعدد المعنى.

ورصد سبعة أسباب لهذا الاحتمال، هي:

- توارد شروط أكثر من وظيفة نحوية على كلمة واحدة.
- تخلف بعض الشروط في الظاهر من جميع الوظائف النحوية في كلمة واحدة.
- الاشتراك اللفظي في الحروف والأدوات.
- احتمال الكلمة الواحدة لأكثر من بنية صرفية وأثره على علاقاتها التركيبية.
- مخالفة الأصل بالحذف، أو بالتقديم والتأخير، أو نحو ذلك.
- وجود أكثر من عامل يصلح أن تتعلق به شبه الجملة معنى وتركيبا.
- خفاء قرينة الإحالة.

وفي إطار عملية الكشف النحوي عن حجب المعاني أكد تضافر عدة إجراءات هي: تحديد الوظائف النحوية ودلالتها، وإدراك الدلالات اللغوية الوضعية والاستعمالية للكلمات، وإدراك الدلالات الوضعية لأبنية الكلمات، وتأمل العلاقات القائمة بين المستويات الثلاثة. ومجهود ذهني ينتقل من المعلوم إلى المجهول، ويعيد بناء الدلالة بعد تحليل التركيب، مستعينًا بسمات أسلوبية كالتكرار، والتأكيد، والتقابل، وجهة العلاقة (إيجاب / سلب)، وحركة الضمائر.

وقد حاول البحث تجلية تلك الإجراءات واستثمارها في التحليل التطبيقي لقصيدة حميد، لاستبانة مدى فاعليتها وقدرتها على استكناه باطن النص.

مراجع البحث وإحالاته:

(1) جمال الدين محمد بن مالك (ت 671هـ): شرح الكافية الشافية، تحقيق د.عبد المنعم أحمد هريدي، دار المأمون للتراث، الطبعة الأولى 1402هـ - 1982م، 155/1.

(2) يرجع الفضل في التنبيه إلى ما تضمنته عبارة ابن مالك من طاقة النحو على الكشف عن حجب المعاني إلى أستاذي الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف رحمه الله تعالى، انظر: النحو والدلالة مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، دار الشروق – القاهرة، الطبعة الأولى 1420هـ-2000م.ص35، والإبداع الموازي – التحليل النصي للشعر، دار غريب – القاهرة، 2001م.ص29.

(3) انظر: د.تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة – الدار البيضاء، 1994م.ص39.

(4) عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ): دلائل الإعجاز، قرأه وعليق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي - القاهرة، الطبعة الثانية 1410هـ-1989م.ص 28.

(5) التهويش التخليط والاضطراب، وهو في معنى الكلمة المشهورة تشويش، يقول ابن منظور: «وأما التشويش فقال أبو منصور: إنه لا أصل له في العربية وإنه من كلام المولدين، وأصله التهويش وهو التخليط، وقال الجوهري في ترجمة (شيش): التشويش التخليط، وقد تشوَّش عليه الأمر» [لسان العرب 4/ 2359].

(6) انظر: المرادي (749هـ): توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، تحقيق د.عبد الرحمن علي سليمان، دار الفكر العربي – القاهرة، الطبعة الأولى، 1422هـ - 2001م.527/1

(7) سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (ت792هـ): المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، تحقيق د.عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى 1422هـ - 2001م.ص145.

(8) انظر احتجاج ابن جني لرأيه بعد أن حكى الإجماع على عدم جواز هذه الصورة في الخصائص 294/1، 295.

(9) التفتازاني: المطول ص 145.

(10) انظر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، دار القلم – دمشق، الدار الشامية -بيروت، الطبعة الأولى 1416هـ - 1996م، 121/1، 122.

(11) محمد الطاهر ابن عاشور: موجز البلاغة، طبع على نفقة المكتبة العلمية – تونس، طبعة أولى، د.ت، ص9.

(12) الخطيب القزويني (ت 739هـ): الإيضاح في علوم البلاغة، شرح وتعليق وتنقيح د.محمد عبد المنعم خفاجي، المكتبة الأزهرية للتراث – القاهرة، الطبعة الثالثة، سنة 1413هـ - 1993م.31/1.

(13) السابق 31/1.

(14) إبراهيم بن محمد بن عربشاه عصام الدين الحنفي (ت943هـ): الأطول شرح تلخيص المفتاح، تحقيق د.عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية -بيروت -لبنان، الطبعة الأولى 1422هـ - 2001م، 174/1.

(15) انظر: شمس الدين الإنبابي (ت1312هـ): تقرير على شرح سعد الدين التفتازاني لتلخيص المفتاح، مطبعة السعادة – مصر، 1330هـ1/ 245.

(16) انظر: المطول ص147، والأطول 174/1.

(17) انظر: بهاء الدين أبو حامد أحمد بن علي بن عبد الكافي السبكي (ت773هـ): عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق د.خليل إبراهيم خليل، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 1422هـ - 2001م، 1/ 201.

(18) انظر في بيان هذه الأقسام: د.محمد أديب صالح: تفسير النصوص في الفقه الإسلامي، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الرابعة، 1413هـ - 1993م.140/1 وما بعدها.

(19) انظر: أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري (616هـ): التبيان في إعراب القرآن، تحقيق علي محمد البجاوي، عيسى الباي الحلبي وشركاه – القاهرة.15/1.

(20) وقد يُسكَت عن هذا الشرط لأنَّ النحاة لم يتفقوا عليه، انظر: حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة، د.ت.123/2.

(21) انظر: ابن منظور: لسان العرب 2756/4.

(22) انظر: بهاء الدين عبد الله بن عقيل (ت769هـ): شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق محمد محيي الدين عبد لحميد، دار التراث – القاهرة، الطبعة العشرون 1400هـ-1980م.252/2-255.

(23) انظر: العكبري: التبيان 333/1.

(24) انظر: السمين الحلبي، أحمد بن يوسف (ت756هـ): الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم – دمشق، د.ت.471/4، 472.

(25) انظر: السابق 473/4 - 475.

(26) الزمخشري: جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت538هـ): الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، مكتبة العبيكان – الرياض، الطبعة الأولى 1418هـ-1998م.177/5.

(27) السابق 177/5.

(28) انظر: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (310هـ): تفسير الطبري، جامع البيان عن تفسير آي القرآن، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان - القاهرة، الطبعة الأولى، 1422هـ - 2001م.111/5 – 118.

(29) انظر: محمود شكري الآلوسي: روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي – بيروت، د.ت.11/21، 96، 6/24.حيث أشار إلى بعض تلك الصور.

(30) أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس (ت338هـ): إعراب القرآن، تحقيق زهير غازي زاهد، عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية، الطبعة الثالثة 1409هـ - 1988م.124/4.

(31) الزمخشري: الكشاف 392/5.

(32) انظر: ابن عطية الأندلسي (ت546هـ): المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، لطبعة الأولى 1422هـ - 2001م.25/5.

(33) انظر: أبو العباس أحمد بن محمد بن عجيبة (1224هـ): البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، تحقيق أحمد عبد الله القرشي، طبع على نفقة د.حسن عباس زكي، القاهرة 1421هـ - 2000م.193/5.

(34) انظر: الزمخشري: الكشاف 455/4.

(35) انظر في بيان العهد الجنسي والتعيين بالصفة: د.تامر عبد الحميد أنيس: الإحالة في القرآن الكريم درسة نحوية نصية، مكتبة الإمام البخاري – القاهرة، الطبعة الأولى 1429هـ-2008م.ص157، 158، 449.

(36) د.محمد حماسة عبد اللطيف: اللغة وبناء الشعر، مكتبة الزهراء – القاهرة، الطبعة الأولى 1992م.ص281.

(37) الجرجاني: دلائل الإعجاز ص 81.

(38) السابق ص 55.

(39) د.محمد حماسة عبد اللطيف: النحو والدلالة ص52.

(40) انظر: موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش (ت643هـ): شرح المفصل، إدارة الطباعة المنيرية بمصر، د.ت.55/2.

(41) الجرجاني: دلائل الإعجاز ص175.

(42) انظر: د.محمد حماسة: النحو والدلالة ص 49-51.

(43) ابن هشام الأنصاري: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق الدكتور عبد اللطيف الخطيب، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت، الطبعة الأولى 1423هـ-2002م.7/6-9.

(44) ديوان حميد بن ثور الهلالي، صنعة وتحقيق عبد العزيز الميمني، الدار القومية للطباعة والنشر – القاهرة، 1384هـ-1965م.ص/ ح.

(45) تاريخ دمشق، لابن عساكر، تحقيق عمر بن غرامة العمروي، ط.دار الفكر، بيروت، 1415هـ - 1995م.274/15.وعنه أخذها الأستاذ عبد العزيز الميمني في ديوان حميد بن ثور الذي صنعه، والدكتور محمد شفيق البيطار في إخراجه لديوان حميد، إلا أنَّ الأول زاد بيتين في آخر القصيدة، هما:

أتُشغَل عنَّا يا ابن عمٍّ فلا ترى...من البخل لاءً سوف تعتلُّ بالشغلِ

مهالسةً والستر بيني وبينه...بدارا كتحليل القطا جاز بالضحلِ

وأرى - والله تعالى أعلم - أنهما ليسا منها.

(46) أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا (ت395هـ): مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1399هـ-1979م.135/6.

(47) في تاريخ دمشق 15/ 274، والديوان بتحقيق الميمني ص 124 (وعدت) بالواو، وفي الديوان بتحقيق البيطار ص 336 (فعدت) بالفاء، ولم يشر أحدهما إلى اختلاف النسخ في هذا الحرف، وقد رجحت رواية الواو لما بينته في التحليل.

(48) اكتمى: استتر، بزة الحرب: ثياب الحرب وسلاحها، شيحان القرا: طويل الظهر، نبّل: نبيل، عبل: ضخم ممتلئ.

(49) والميمون المبارك، والنقيبة النفس والعقل والرأي والطبيعة، والمبلي هو من حسن بلاؤه في الحرب.

(50) دلائل الإعجاز ص146.